

الملاحظ

بقلم عبد الستار سليم

المدرس بمدرسة الأميرة فوزية الثانوية للبنات

لا نحاول فيما نكتب عن الملاحظ أن نلم بجميع نواحيه العلمية والأدبية والفلسفية ،
فذلك مالا سبيل إليه في هذا المقام ، كما لا نحاول أن نحلل تلك الشخصية الفذة ، وليس
من السهل تحليلها والاشاطة بجميع الأسباب واللايات التي كان لما أثر في تكوينها .
وإنما نريد أن نلقى شعاعاً من الضوء تنير به الطريق لمن أراد أن يعرف شيئاً عنه من
الناشئين أو الطلاب . وعلى من أراد أن يدرسه دراسة وافية أن يرجع إلى كتبه
ومصنفاته فبها يتزود ورؤية ، ثم يحكم على مقتضى فهمه وإدراكه ، وحينئذ يتجلى له
مكافة الملاحظ وعبقريته وأدبه وحكمته وعلمه وفلسفته وفصاحته وبلاغته وجده ومزله

هو نادرة البطون ، وهبة الأجيال والقرون . فيلسوف المتكلمين ، وأحد
أساطين العلم المعدودين . ورجالالات الأدب المبرزين ، صاحب التصانيف الممتعة
في كل فن ، والرسائل القيمة في شتى الأغراض ومختلف الشؤون .

أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكنانى البصرى
ويقطع كثير من المحققين بأنه كنانى بالنسب لا بالولاء ، ويؤيدون هذا رأى
بما جرى عليه في كتبه ومؤلفاته من شدة تعصبه للعرب وتمدحه بفضائلهم .
وكان على أدبه وفضله دميم الخلق جاحظ العينين ، والجحوظ : التواء ، ولذلك
قليل له الجاحظ ، كما كان يقال له أيضاً الحدق لذلك

نشأته وتربيته

ولد الجاحظ بالبصرة حوالى سنة ١٦٠ هـ في خلافة المهدي ونشأ بها . وكانت
في ذلك الوقت كعبة العلماء وحلبة الفقهاء ومنتدى الأدباء ومبارة الرواة والمحدثين
واللغويين . وحاضرة البر والبحر ، وقرارة المرید ، والنهضة العلمية الأدبية لاتزال
في إبانها ، والعلوم والمعارف أقوى أسباب الاتصال بالخلفاء والوزراء والولاة :
فوجد بيئة صالحة للتعليم ، ومجالاً واسعاً للدرس ، وحافزاً قوياً للتحصيل ،

ومواهب نادرة لا يزيد بها الكد والاستطلاع إلا قوة ونمًا؛ فأكب على العلم وتفرغ له، فلم يترك فئاً من الفنون، ولا علماً من العلوم المعروفة في عهده إلا ضرب فيه بسهم وأخذ منه بأكبر نصيب.

ولقد أدرك طبقة أبي عبيدة معمر بن المثنى، والأصمعي، وأبي زيد الأنصاري، وأبي الحسن الأخفش، وعنهم وعن غيرهم من شيوخ العلم ورواة الأدب أخذ اللغة والأدب والنحو

ثم لازم أستاذه أبا إسحاق إبراهيم بن سيار النظام المتكلم المعتزلي المشهور، وعليه تخرج في علم الكلام ومذاهب الاعتزال

وكثيراً ما كان يذهب إلى مريد البصرة وهو إذ ذاك أشبه بسوق عكاظ في الجاهلية، يلتقي فيه الشعراء والخطباء والرواة والنسابون ويعرضون ثمرات قرائمهم وتناج أفكارهم، فيأخذ الفصاحة عنهم شفاهاً

ولقد أولع بالكتب وقراءتها أو استظهارها؛ قال أبو هفان: «لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ؛ فإنه لم يقع يده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر،

وذكر المبرد أنه ما رأى أحرص على العلم من ثلاثة: الجاحظ، والفتح بن خاقان، وإسماعيل بن إسحاق القاضي، ثم قال: «فأما الجاحظ فإنه كان إذا وقع يده كتاب قرأه من أوله إلى آخره أي كتاب كان،

وكان يحفظ كثيراً مما يقرأ، ويستوعب كل ما قرأ أو سمع فيها وإدراكاً، فلا يكاد ينتهي من قراءة كتاب حتى يكون قد ألم بما فيه

وقد خالط كثيراً من مترجمي الفرس والسريران، وقرأ جميع ما ترجم في أزمان المنصور والرشد والبرامكة والمأمون، فأحاط بجميع الثقافات المختلفة: من عربية وفارسية ويونانية وهندية؛ فكان لذلك أثر واضح في ثقافته وإنتاجه، فقد مزج الفلسفة بالأدب والفكاهة، كما غلب عليه مذهب المعتزلة في الكلام

ولقد أقام الشطر الأول من عمره بالبصرة باحثاً مستطلعاً، وكان إذا أعوزه

بحث أو استقراء أو استكمال معرفة انتجع بعض المدائن الإسلامية المعروفة،
للقاء العلماء ومباحثة الرواة والأدباء، ثم يعود وقد ملأ وطابه بما أراد من علم
وأدب؛ ولعل ذلك من أسباب كتابته في السياسة والاجتماع

وكانت إقامته في البصرة إقامة المترفين؛ لعله وأدبه وذكاؤه وفطنته، بما حبه
إلى الولاة والأعيان ورؤساء الموالي، فأغدقوا عليه العطايا والمنح، بسبب ما كان
يصنفه لهم من الرسائل والكتب التي كان يؤيد فيها مذاهبهم وينقض آراء مخالفينهم؛
فيرضيه بذلك من ناحية، ويدل على فضله وأدبه وقدرته من ناحية أخرى.
وقد سأله ميمون بن هرون حينما رآه يتقلب في النعمة: «ألك ضيعة بالبصرة؟»
فتبسم وقال: «إنما أنا وجارية لي، وجارية تخدمها، وخادم وحمار...»

... أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف
دينار، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف
دينار، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاني
خمسة آلاف دينار، فأنصرفت إلى البصرة ومعى ضيعة لا تحتاج إلى تحديد
ولا تسميد.

ولما جاوز الخمسين من عمره، كثر انتجاعه إلى بغداد وأواخر عهد المأمون،
وكل عصر المعصم والواثق، وشطراً من زمن المتوكل؛ وكان يقيم بها ويتصدر
للدرس والمناظرة، فيلتف حوله العلماء والأدباء، ويؤمه الطلاب على اختلاف
الملل وتباين النحل، فيرتوون من مناهله، ويغترفون من بحاره

وكان ينتجع المأمون ووزرائه وكتابه وكبار رجال دولته، ثم انقطع في الانتجاع
إلى محمد بن عبد الملك الزيات مدة وزاراته الثلاث؛ وكان يقيم بسر من رأى؛
وبعد موت ابن الزيات عاد إلى البصرة وقلج بها، واستمر مدة مفلوجاً، وكثيراً
ما كان يحمل إلى بغداد ليستمتع به؛ وقد توفي في إحدى هذه الرحلات سنة ٢٥٥ هـ

عقبه وأثرها في أدبه

كانت ملازمة الجاحظ لأستاذه النظام من أسباب نشأته على غرارته في القول
بسلطان العقل والاحتكام إليه في كل شيء، ووجوب الشك والتجربة قبل الاعتقاد

واليقين؛ ولقد انتصر لهذا المذهب بيلاغته وبيانه وكتبه وورسانه، حتى صار لسان المعتزلة في زمانه

وكان لتقدم النهضة العلمية وازدياد حركة التأليف والترجمة وامتداد الزمن به، ما هيأ له أسباب الإلمام بالفلسفة اليونانية أكثر مما هيء لاستاذة النظام؛ ولذلك تجده قد تغلغل في الكلام ومزجه بكثير من آراء الفلاسفة اليونانيين، وانفرد فيه بمقالة وافقه عليها كثير من متكلمي زمانه سموها الجاحظية

ولم يكن في عهده من يدانيه معرفة واطلاعاً، لأنه أحاط بجميع ثقافات عصره، على حين كان العالم لا يبرز إلا في ناحية واحدة من نواحي العلم والمعرفة؛ فاللغوى واقف عند حد اللغة، والأديب لا يتعرض للفلسفة، والمؤرخ لا يبحث في الدين، والفيلسوف لا يضطلع بأعباء الأدب ومباحثه

أما الجاحظ فقد اضطلع بأعباء الثقافات كلها، فكان يروى الأدب وينقده نقد البصير، وينقل آراء الفلاسفة ويزنها بميزان العقل، فما استساغ عقله قبله، وإلا هزأ به وبرهن على خطئه وفساده؛ ولقد كان من أثره في الأدب أنه حدد موضوعه - وكان قبله شكلاً تقريباً - وأغزر معانيه؛ فانتسعت أغراضه، وتشعبت مباحثه، ودقت مقاصده.

وأما أثره في الفلسفة فقد مزجها بالأدب وصاغها صياغة أدبية تقربها إلى الذهن، وربط أقوال الفلاسفة بأقوال الأدباء، فإذا بالشعراء يتناولون معاني المتكلمين في أشعارهم، بل يعتقدون بعض مذاهبهم الدينية وينتصرون لها. وكان له من أسلوبه الفضفاض ومتداداته الطليقة ما يكفل جلاء الغامض وتقريب البعيد؛ فأصبحت الفلسفة غذاء للنفس والعقل معاً، ولقد كانت قبل الجاحظ في واد والأدب في واد آخر، والهوة سحيقة بينهما

علمه وأدبه

قلنا إن الجاحظ قد أحاط بجميع أنواع الثقافة المعروفة في زمانه، من إسلامية وفارسية ويونانية وهندية؛ ولذلك اتفق الرواة والمحققون على أنه لم يكن في عهده رجل أوسع منه معرفة ولا أمتع أدباً، ولا أظف بحثاً، ولا أظرف فكاهة،

ولا أبلغ عبارة، ولا أكثر تصنيفاً، ولا أوضح حجة وبرهاناً. فهو عالم أديب، وفيلسوف متكلم، وكاتب مترسل، وراوي صادق، ومحاضر فكه، ومصنف بارع؛ ويمتاز بأنه أول من وضع أسس كتب الأدب الجامعة، بتصنيفه كتاب البيان والتبيين؛ وأول من أسهب القول في اللطائف والفكاهات، وأول من وضع كتب المحاضرات الجامعة لكثير من فنون الأدب الكثيرة، وأول من جمع بين طرفي الجد والهزل، وعرف عن الحيوان والنبات والموات وأحوال الناس ونظام معيشتهم وعاداتهم وأخلاقهم ما لم يعرفه أحد قبله.

ولذلك يعتبر أحد نوابغ الدنيا الذين لا يجود الدهر بمثلهم إلا بعد أجيال وقرون، ولقد كان على دمامة خلقه خفيف الروح، حلو الفكاهة، طيب الحديث؛ وكان من الذكاء والفتنة ودقة الحس وصدق الفراسة بحيث لا يشاركه في ذلك سواه؛ فقد روى ابن خلكان عن بعض البرامكة أنه قال: كنت تقلدت السند فأقمت بها ماشاء الله تعالى، ثم اتصل بي أنى صرفت عنها - وكنت كسبت بها ثلاثين ألف دينار - فخشيت أن يفجأني الصارف فيسمع بمكان المال فيطمع فيه، فصغته عشرة آلاف أهليلجة، في كل أهليلجة ثلاثة مثاقيل، ولم يمكك الصارف أن أتى، فركبت البحر وانحدرت إلى البصرة، فخبرت أن الجاحظ بها وأنه عليل بالفالج، فأحببت أن أراه قبل وفاته، فصرت إليه فأفضيت إلى باب دار لطيف فقرعته، فخرجت إلى خادم صفراء؛ فقالت: من أنت؟ قلت: رجل غريب وأحب أن أسر بالنظر إلى الشيخ. فبلغته الخادم ماقلت؛ فسمعتة يقول: قولي له: وما تصنع بشق مائل، ولعاب سائل، ولون جائل؟ فقلت للجارية: لا بد من الوصول إليه. فلما بلغته قال: هذا رجل قد اجتاز البصرة وسمع بعلني فقال أحب أن أراه قبل موته فأقول قد رأيت الجاحظ. ثم أذن لي؛ فدخلت وسلمت عليه، فرد رداً جيلاً وقال: من تكون أعزك الله؟ فانتسبت له؛ فقال: رحم الله تعالى أسلافك وآباءك السمحاء الأجواد؛ فلقد كانت أيامهم رياض الأزمته، ولقد انجبر بهم خلق كثير؛ فسقياً لهم ورعياً. فدعوت له وقلت: أنا أسألك أن تنشدني شيئاً من شعرك. فأشدني:

لئن قدمت قبلي رجال فظالما مشيت على رجلي فكنت المقدما

ولكن هذا الدهر تأتى صروفه فترى منقوضاً وتنقض مبرما
ثم مضت؛ فلما قاربت الدهليز قال: يا قتي، أرايت مفلوجا ينفعه الإهليلج؟ قلت:
لا. قال: فإن الإهليلج الذى معك ينفعنى، فابعثلى منه. فقلت: نعم، وخرجت متعجبا
من وقوعه على خبرى مع كتمانى له، وبعثت مائة إهليلجة. - ولكنى لأنسب
ذلك إلى صدق الفراسة، بل يطلب أن يكون قد أخذ من حديث الرجل سره أو
عرف قبلا ما يعتمد إليه أمثاله عادة فى مثل حالته فطلب إليه ما طلب.

وكان الجاحظ قليل الاعتداد بما يجرى عليه الناس من تقاليد وعادات
ورسوم؛ ولعل ذلك يرجع إلى اعتداده بنفسه واحتكامه إلى عقله فى كل ما يأخذ
به نفسه من عادة أو يصدر عنه من قول وعمل، بما اوقع فيه بعض المتورعين أو
الحاسدين، فاتهموه فى عقيدته ورموه بكثير من المثالب

فصاعته وأسلوبه :

كان لمعارف الجاحظ الواسعة وثقافته الجامعة وإلمامه بما حوته الكتب
الإسلامية والدخيلة من العلوم والفنون والطبيعات والأهليات والفلسفة والحكمة
والآدب، أكبر الأثر فى نفسه أولا وأسلوبه ثانيا.

فقد مزج كل معارفه بعضها ببعض، بعد أن نسقها ونظم أشاتها واستخلص
منها طائفة خاضعة لإرادته، يستنبط منها ما أراد ويستخدمها كيفما يشاء؛ ثم اتخذ
له طريقة طريقة فى التصنيف تحبب القراء فى المطالعة وتغريهم بالاستطلاع، ولم
تكن تلك الطريقة مألوفة، بل ابتكرها ابتكاراً وانتحلها انتحالا، فنسبت إليه وعرف
بها فى كتابته وتصنيفه؛ وتقوم تلك الطريقة على حسن اختيار الموضوعات الشبيهة
التي لم يحنح إليها الكتاب من قبل، أو الموضوعات التي لا يخطر على البال التأليف
فيها - وسهولة العبارة وانسجامها وكثرة التراكيب المترادفة التي تنطق بقدرته على
المزاوجة والترادف والاستطراد لأدنى مناسبة، والخروج من الجدل إلى الهزل ومن
العلم إلى الآدب والفكاهة، مما يذهب بسامة القارىء ويكسبه قوة ونشاطاً؛ ثم
التغلغل فى البحث حتى يصل إلى الغاية التي يريدتها والنتيجة التي قصد إليها.

وقد اقتدى به بعض كتاب عصره، فاعتبر إمام الكتاب فى العصر العباسى الثانى.

كتب الجاحظ ومؤلفاته

ليس بين كتاب العربية من أنتج إنتاج الجاحظ في التصنيف والتأليف؛ ولقد كان موقفاً في كتبه ومؤلفاته، فما وضع كتاباً إلا وأقبل الناس على اقتنائه وقراءته ودراسته، ولا يلبث أن يذاع وينشر في المدائن والأقطار العربية الإسلامية، ثم يصبح حديث الأندية العلمية والمحافل الأدبية وموضوع درس عميق في حلقات الدروس بالمساجد والمدارس، وموضوع إعجاب بالجاحظ وإكبار لعله وأدبه؛ ولقد ساعده على هذا الإنتاج معارفه الواسعة، وذهنه الصافي، وقريحته الفياضة؛ فألف في كل فن، وصنف في كل غرض؛ فقد كتب في الدين والسياسة والاجتماع والآداب والحيوان والنبات والأخلاق وغير ذلك من الموضوعات ما يربى على مائتي كتاب

وأهم تلك الكتب كتاب البيان والتبيين، ويظهر أنه صنفه في أخريات حياته؛ وهو أول كتاب جامع للأدب، وفيه كثير من الاستطراد الذي يغلب عليه في كل مصنفاته

ثم كتاب الحيوان، وفيه أكبر دليل على قوة عقله وسمو إدراكه وتحريه الحق والصواب فيما ينسب إلى الحيوان من غرائز وطباع؛ ويظهر أنه قرأ كتب أرسطو في علم الحيوان ولكنه لم يأخذ قوله قضية مسلمة، بل كان يعتمد على التجربة والمشاهدة، وكثيراً ما يهزأ برأيه وينسب إليه القصور مرة والكذب أخرى وكتاب الطفيليين والبخلاء:

قال المسعودي: «وكتب الجاحظ مع انحرافه (أي عن التشيع لأن المسعودي كان يتشيع) تجلوصاً الأذهان، وتكشف واضح البرهان؛ لأنه نظمها أحسن نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من ألفاظه أجزل لفظ؛ وكان إذا تخوف ملل القارئ وسأمة السامع، خرج من جد إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة؛ وله كتب حسان، منها كتاب البيان والتبيين وهو أشرفها؛ لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر لا كفى. وكتاب الحيوان وكتاب الطفيليين والبخلاء وسائر كتبه في

نهاية الكمال ، ولا يعلم من سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه ،
ويقول ابن العميد :

« كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً ،

رسائل

للجاحظ رسائل ممتعة كثيرة تدل على فصاحته وتفتته في اختراع المعاني ،
وقدرته على أن يجعل لكل رسالة موضوعاً علياً يسهب فيه ويطنب ، ويتهم وينجد ،
ويغوص فيه إلى الأعماق فيأتي بدرره وآلته ؛ ولا يزال هذا شأنه حتى يتناوله من
جميع أطرافه تناوولاً لا يترك شاردة ولا واردة من مباحثه وأغراضه حتى
يستوعبها بحثاً واستقراء ؛ فهو بذلك إمام الكائنين وقدوة الباحثين

وإنك لترى الصغير من الأمور يتناوله الجاحظ بالكتابة ، فإذا به قد خلق
فيه عظيماً ، واشتق منه جليلاً ، فغير رأيك واعتقادك ، ورسمه في ذهنك رسماً
يخالف صورته الأولى في نفسك ؛ وعلى العكس من ذلك إذا أراد تصغير
العظيم ، فإنك لا تلبث أن تشك في صدق معرفتك وخطأ فكرك . ولا شك أن
ذلك وليد علمه وأدبه وقدرته على الحجة والافتناع

ومن قرأ رسائله في الحسد ، ورسالة الترييع والتدوير ، ورسالته في الغناء
وغير ذلك من الرسائل يجدها كلها ناطقة بصحة ما قلناه

وقد يوجز فإذا بايجاز اللفظ وإطناب في المعنى ، وإذا بالعبارة القصيرة تنطق
بمعان كثيرة ؛ فقد كتب مستنجزاً وعداً :

« أما بعد فقد رسفنا في قيود مواعيدك ، وطال مقامنا في سجون مطلقك ؛ فأطلقنا
(أبقاك الله) من ضيقها وشديد غمها بـ (نَعَمْ) منك مشمرة أولاً مريحة ،

فقد جمع في تلك الأسطر الثلاثة كل المعاني التي يمكن أن تقوم بالذهن في
هذا الموضوع ، مع صدق التمثيل ومرارة التأنيب وتصوير الألم ، وطلب الفصل

إما بلا مريحة أو نعم مشمرة .

وفي هذا القدر كفاية .